خطاب الأعتبار في القرآن الكريم دراسة أسلوبية

أ.د. أمل عبد الجبار كريم الشرع

المقدمة

ازدهرت اللغة العربية تحت ظلال القرآن ؛ لأنه المعجزة العقلية والقولية التي تحدى بها بلغاء العرب وفصحائهم،إلا أنه راعى ظروفهم وتقاليدهم التي كانوا يعيشوها قبل الإسلام.إنَ اسلوب القرآن يختلف عن الاجناس الأدبية التي يتمثل بها العرب من شعر ونثر ؛بل اسلوبه خاص به، وبما أن النمط الإيقاعي ينسجم اسلوبه مع اساليب العرب الإ أنه معجز في خطابه لاعتبارات عديدة منها: بلاغته،وتركيب آياته، وجرس الفاظه التي تمثلت في الفواصل والحروف، وماحمل القرآن من حكم وامثلة وقصص وعبر،وهو متواشج لكل زمان ومكان،بحيث اصبح المحور في هذه الحياة ؛لأن الإنسان يمثل المحور الأساس في هذا الكون المحيط به بما وهبه الله تعالى من نعمة العقل بحيث أصبح قادرا على الإستدلال على كثير من المفاهيم الإسلامية من طريق تفسير القرآن بالقرآن،والتفريق بين الخير والشر،والحق والباطل،والحلال والحرام.

وكانت مهمة الدين والرسل والأنبياء هو التوجيه والإرشاد الى الهدى الآلهي فاختار الإنسان طريقه بارادته وبحكم العقل قال تعالى: ((وهديناه النجدين)) البلد: ١٠، من أجل ان يكون متوازنا على أختيار الطريق السليم المؤدي الى الله تعالى مقرونا بالرحمة الآلهية.

المحور الأول: تنوع موضوعات خطاب الاعتبار

أُنزل القرآن الكريم بوصفه رسالة دينية فكرية تحكمها قوانين السماء، وأيضاً وثيقة أدبية أجتماعية بكلام العرب وعاداتهم اللغوية، وكان يخاطبهم بلسان عربي مبين على وفق مقاييس اللغة وسنن الخطاب المعروفة والمتداولة لديهم، حتىتميز بارضائه العامة والخاصة على حد سواء. ويتشكل الخطاب القرآني احياناً فياخذ صوراً وصياغات معينة على وفق الهدف المعول عليه والغاية المراد تحقيقها.

وفي هذا المحور نبحث في موضوعات خطاب الاعتبار في القرآن الكريم والخطاب مفهوم السني حديث، والنص القرآني نصُ أدبي معجز متعدد الخطابات، لذا أهتم القرآن بهذا الجانب في مخاطبة العقل الانساني بوصفه القوة المهيمنة على ذات الانسان، لان الله سبحانه وتعالى اودعها للسيطرة على الاهواء الشخصية، ومحاسبة النفس، والتميز بين الحق، والباطل والخير والشر، والكشف عنها، واتخاذ القرار المناسب لها، لان اتخاذ القرار ليس سهلاً، بل أمرُ شاق للسيطرة على الاهواء التي تدفعهم نحو الطغيان.

والاعتبارات التي خاطب الله بها الانبياء هي تنصب في مصلحة البشر من عظة وحكمة، ودعى الله اليها في كتابه العزيز فقال تعالى: ((ادع الى سبيل ربك بالحكمةِ والموعظةِ الحسنة وجادلهم بالتي هي احسن)) النحل: ١٢٥، إذاً فالمجادلة تكون باللين ولم تكن بالغلظة والشدة، فهي وسيلة اقناع بطريقةٍ محببة، لكسب ود الاخرين، وهذه من مكارم الاخلاق وسمو النفس.

وقد تناول القرآن طرق عديدة للاعتبار ومنها: التهكم والسخرية والاستهزاء والتحقير والخوف والتأنيب والترهيب والترغيب والتحبيب والصبر..... إلخ

والتهكم هو الخطاب بلفظ التعظيم في موضع التحقير، والتبشير في موضع التحذير والوعد في مكان الوعيد، والعذر في موضع اللوم، والمدح في معرض السخرية: (اساليب البديع في القرآن ٧٣٢) نحو قولة تعالى ((ذق إنك انت العزيز الكريم)) الدخان: ٤٩، إن بناء الخطاب في هذا النص قائم على عنصر السخرية، ويبدو آن الله سبحانه وتعالى استجمع سخطه في كلمة (ذق) وصيغة الامر أستعملها في الاهانه بعلاقة الضدية، والاذاقة كما نعلمهي للاشياء الحلوة الا أن الله سبحانه فاجأة المخاطب والخطاب مناسب للحال (والمقصود عكس مدلوله اي انت الذليل

المهان) (التحرير والتنوير). والسياق كله عذاب، وامر ملفت للنظر ويبعث على التفكير وقوله تعالى ايضاً: ((فاذاقها لباس الجوع والخوف)) النحل: ١١٢

(استعير اللباس(للجوع)، ثم قرن بما يلائم المستعار له من الاذاقه) الاتقان: ٣ / ١١٧ وقوله تعالى: ((فبشرهم بعذاب اليم))آل عمران: ٢١ الله سبحانه وتعالى جعل العذاب مبشراً به، وهي للخير السار (فقد استعمل في ضدمعناه أو تقرضه ينتريل التضاد او التناقض منزلة التناسب) ينظر: مفتاح العلوم: ٤٨٣، والايضاح: ٢ / ٤٢. فالانذار بالبشارة على سبيل التهكم والاستهزاء.

اما الخوف فان الانسان ينتابه اذا أدرك وجود خطر يهدد حياته، فيتخذ الانسان موقفاً معيناً يحميه من الخطر، وله صلة بالعقل والادراك، فان القرآن الكريم حافل بكثير من الايات التي لها صلة بالخوف (فالخوف هو انفعال طبيعي يقوم بدور حيوي مهم في صميم الحياة النفسية للوجود البشري لانه يحميه من الاخطار وكل ما من شأنه أن يهدد حياته) تغلَب على الخوف: ١٣ فالقرآن نمى من تأثير الخوف في النفس الانسانية لاثراء السلوك الخارجي وزيادة عطاء الخير الانساني نحوقوله تعالى: ((فأوجس في نفسه خيفة موسى)) طه: ٦٧ أي قلنا لا تخف انك الاعلى (فأوجس موسى) ووجد في نفسه ما يجده الخائف، ويقال أوجسالقلب فزعاً وذلك انه خاف ان يلتبس على الناس آمرهم فيتوهموا انهم فعلوا مثل ما فعله، ويظنوا المساواة فيشكوا ولايتبعونه وخاف ان يتفرق الناس قبل القائه العصا) مجمع البيان في تفسير القرآن: ٧ / ٢.

وقيل: (انه خاف ان يتفرق الناس بعد رؤية سحرهم ولايصبروا الى أن يلقي عصاه فيدعي التساوي وتحبب السعي، فموسى ع لم يوجس خيفة على نفسه بل اشفق من غلبة الجهال ودول الضلال) ينظر تفسير الميزان: ١٤ / ١٧٨، ١٨٤.

والخوف من لوازم الايمان وله اثار ايجابية ومثمرة وليس الخوف من العذاب وانما اجلالاً لله تعالى نحو قوله تعالى: ((انما يخشى الله من عباده العلماءُ)) فاطر: ٢٨ لان العلماء كانوا على ثقة ويقين بمعرفة الله تعالى، لان العقل هو التقوى لله تعالى، وهي حقيقة باقية في حياة الانسان لأن العلماء نالوا المقام الرفيع من الخشيه وهو الخوف من المسؤولية.

ومن الايات التي تخبر عن أهوال القيامة وتخويفهم فقد جاءت الآيه القرآنية في قوله تعالى: ((كل نفس معها سائق وشهيد)) ق: ٢١، وقوله ايضاً: ((كأنما يساقون الى الموت وهم ينظرون)) الانفال: ٦

أخبر الله سبحانه عن حال الناس بعد البعث كل نفس تجيىء معها من المكلفين في يوم الوعيد ومعها سائق من الملائكة يحثها على السير الى الحساب، وشهيد من الملائكة يشهد عليها وقيل ان الجوارح سوف تشهد عليه فلا يجد الى الهرب ولا الى الجحود سبيلاً: مجمع البيان:١٤٦/٩ وقوله ايضاً: ((وسيق الذين كفروا الى جهنم زمراً)) الزمر: ٧١ الكافرون يساقون الى جهنم افواجاً حتى اذا انتهوا إليها فتحت ابوابهاوقال لهم الموكلون بها على وجه التهجين والانكار (ألم يأتيكم رسل من امثالكم من البشر) ويخوفونكم من مشاهدة هذا اليوم وعذابه اي قال الكفار لهم: بلى ! قد جائتنا رسل ربنا وخوفونا بآيات الله ووجب العقاب على من كفر بالله)مجمع البيان: ٨ / ٥١. وليس الخوف من الله سبحانه وتعالى فقد نجد في هذه الآية جبن المنافقين وخوفهم على أنفسهم من القتال نحو قوله تعالى: ((فأذا جاء سلقوكم بالسنة حداد أشحةً على الخير))الاحزاب: ١٩

تعكس هذه الايه (جبن المنافقين وخورهم عند القتال، وجرأتهم على الذنوب والآثام وهم آمنون مطمئنون ترتعش منهم القلوب، وتدور العيون في رؤوسهم فزعاً وهلعاً في ساحة الوغى وعند السلم والامن يطلقون السنتهم السلاط تنهش المؤمنين والمجاهدين) التفسير الكاشف: ٦ / ٢,٣

ومن الاعتبارات التي تدل على الخوف ايضاً التهديد والتأنيب، والترهيب، من عواقب التمرد على الله سبحانه وعلى الانبياء والشرائع الاسلامية.

ومن قوله تعالى: ((ولأصلبنكم في جذوع النخل)) طه: ٧١ هدد فرعون السحرة الذين امنوا بموسى عليه السلام لأصلبنكم على جذوع النخل ايها السحرة على تركككم دينكم وتفضلكم موسى عليه السلام: ينظر: مجمع البيان ٧ / ٢١

وقوله تعالى: ((ويلٌ يومئذ للمكذبين)) المرسلات: ١٥، وهذا تهديد ووعيد، وخص به ممن جحدوا يوم القيامة، لان التكذيب بذلك يتبعه خصال المعاصي كلها وان لم يذكر معه يقول الطبرسي: (والعامل في الظرف محذوف يدل عليه قوله: (انما توعدون لواقع) والتقدير فاذا طمست النجوم، وفرجت السماء، ونفست الجبال، واقتت الرسل

وقعت القيامة) ١. / ٤١٥

وقوله تعالى: ((اولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب)) آل عمران: ١٩٩

نزلت هذه الآية في أهل الكتاب من اليهود والنصارى المؤمنين الذين وصفهم الله لهم ثواب اعمالهم وأجر طاعتهم عند الله مذخورة حتى يوفيهم الله يوم القيامة ووصف الحساب،بالسرعة لأن لايؤخر الجزاء فان (سريع الحساب) يحمل معينين الاول انه لايخفى عليه شيء من اعمالهم وهوصدق ايمانهم، والمعني الثاني هو التهديد والتحذير الذين لايمتثلون لامر الله. ينظر: الامثل: ٢ / ٥٥٦

والتانيب والندامة في قوله تعالى: ((اولئك اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين)) البقرة: ١٦. قال ابن عباس رض: (أخذوا الضلالة وتركوا الهدى اي استبدلو الكفر بالايمان، فهم اشتروا واستحيوا واختاروا، لان كل مشترٍ مختارٍ ما في يدي صاحبه، فخسروا في استبدالهم الكفر بالايمان والعذاب بالثواب، فانهم ذهبت رؤوس اموالهم) مجمع البيان:١ / ٥٣

وقوله تعالى: ((ومن الناس من يعبد الله على حرفٍ فأن اصابه خيرٌ اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والاخرة ذلك هو الخسران المبين)) الحج: ١١ أي خسر الدنيا العز والغنيمة والاخرة الثواب والجنة.

وقد يعبر عن الندامة من اعمالهم وهم في غمرة العذاب يصطرخون ويطلبون الخروج من النار والعودة الى دار الدنيا للقيام بالاعمال الصالحة وهومن المحال لان الاوان قد فاتهم في قوله تعالى: ((ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل)) فاطر: ٣٦، فان اعتقادهم اعمالهم الصالحة تكون سبباً في نجاتهم من النار والعذاب والفعل (نعمل) يؤيد هذا المعنى.

وقوله تعالى: ((ولاتقتلوا أولادكم خشية املاقٍ نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطأً كبيراً)) الاسراء: ٣١

خاطب الله سبحانه وتعالى الذين عجزوا عن النفقة وخوفهم من الفقر ونهاهم الله قتلهم ابناءهم لانهم كانوا يئدون البنات فيدفنونهن احياء، واخبرهم الله بانه متكفل برزقهم ثم يؤنبهم على اعمالهم (آن قتلهم كان خطأً كبيرا) يعني ان قتلهم في الجاهلية كان اثماً عظيماً عند الله وهو اليوم كذلك مجمع البيان: ٦ / ٤١٣

ومن الاعتبارات التي خاطب بها القرآن الكريم والتي تعبرعن الخوف ايضاً هي الترهيب والرعب واستعماله في القرآن الكريم مناسب لاحوال الكافرين والمنافقين وامتلأ قلوبهم بالرعب، وحذرهم الله مراراً وتكراراً ومنه ما جاء في قوله تعالى: ((خذوهُ فاعتلوهُ الى سواء الجحيم)) الدخان: ٤٧

الله سبحانه وتعالى صور حال الاثيم وهو يساق بعنف وغلظة الى النار فالمشهد القرآني فيه فزع ورعب دفع المذنب بقوة الى النار وزعزعته (يقال للزبانية خذوا الاثيم جروه بغلظة وشدة الى وسط النار) تفسير الجلالين: ٦٥٩، ثم لايكتفي بذلك (ثم صبوا فوق رأسه عذاب الحميم) اي من الحميم الذي لايفارقه العذاب فهو ابلغ.

ومن الالفاظ التي وردت في القرآن التي تثير الرعب والرهبة في قلوب الكافرين هو الفزع من يوم القيامة نحو قوله: ((إذا وقعت الواقعةُ ليس لوقعتها كاذبةخافضةٌ رافعةٌ)) الواقعة:١-٣ الآية المباركة عرضت لحدوث يوم القيامة الهائل بصورة مروعة ومفزعة وقد وصفها الله سبحانه بالواقعة (لانها تقع لامحالة) الكشاف: ٤ / ١,٧، وهي تكون وقعتها صادقة وخافضة لاعمال كانت رفيعة في الارض، وترفع الاعمال التي كانت خافضة في الدنيا.وكذلك وصف حال الناس يوم القيامة وما يمتلكهم من رعب ورهبة عندما يشاهدون العذاب ما جاء بقوله: ((يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد)) الحج: ٢

وعبر القرآنعن العذاب الذي انزله على الكافر الذي لايؤمن بالله العظيم ولايحض على طعام المسكين ما جاء في قوله تعالى: ((خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه انه كان لايؤمن بالله العظيم ولايحض على طعام المسكين)) الحاقة: ٣٠-٣٤ في هذا الخطاب القرآني يخاطب الله الملائكة اوثقوه بالاغلال وشدوا رجليه ويديه الى عنقه في سلسلة طولها سبعون ذراعاً وادخلوه النار العظيمة لمعصيته لانه كان يتعاظم على الناس فالله سبحانه وتعالى جعل الجحيم والاغلال في السلسلة مختصة بالكافر، وهذه الصوره تثير الرعب والرهبة من عذاب الله ويقال: ان لو حلقة من هذه السلسلة وضعت على جبل لذاب من حرها ؛لانه لم يكن يوحد الله في دار الدنيا ولايصدق نبيه، وكان

يمنع الزكاة والحقوق الواجبة عن المحتاج الفقير، ينظر: مجمع البيان: ١. / ٣٤٧ – ٣٤٨.

لقد حفل القرآن الكريم بما وعد به المؤمنين من جنات وعيون والرغبة في السعي الى الفوز بالجنة ويأتي عنصر الترغيب من طلب الاستغفار والتوبة والرغبة في الصبر والتحبيب والاطمئنان وان لاييأسوا من رحمة الله كما جاء في كتابه العزيز ((انه لاييأس من روح الله الا القوم الكافرون)) يوسف: ٨٧ وفيما جاء من الترغيب قوله تعالى: ((وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمراً)) الزمر: ٧٣

ذكر الله سبحانه وتعالى (السوق) على وجه المقابلة مع سوق الكافرين الى جهنم، فهنا يساقون مكرمين قال رسول الله (ص) ان في الجنة ثمانية أبواب منها تسمى الريان لايدخلها الا الصائمون).(رواه البخاري ومسلم في الصحيحين) وعند استقبالهم يحيونهم بالسلامة وسلام الله عليهم ليزدادوا بذلك سروراً ودعاء لهم بالخلود والسلامة لعملهم الصالح فأدخلوا الجنة خالدين مؤبدين اعترافاً بنعم الله تعالى عليهم، وأكد هذا الامر الله سبحانه وتعالى في قوله: ((وكانوا احق بها وأهلها)) الفتح: ٢٦ ومن نعم الله التي من بها على المؤمنين من بني اسرائيل الذين أستضعفوا واراد فرعون هلاكهم في قوله تعالى: ((ونريد ان نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين)) القصص: ٥

ان فرعون كان يريد اهلاك بني اسرائيل وافنائهم ونحن نريد ان نمن عليهم ونجعلهم قادة ورؤساء في الخير يقتدى بهم ونجعلهم ولاةً وملوكاً، ينظر: مجمع البيان: ٧ / ٢٣٩.

وجاء الخطاب في الجهاد ونصرة دين الاسلام بقوله تعالى: ((يا أيها الذين أمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم)) محمد: ٧.

خاطب الله سبحانه المؤمنين ان تنصروا دين الله بالقتال والجهاد ينصركم على عدوكم، ثم طمنهم بقوله: ويثبت اقدامكمِ قلوبكم وينصركم في الاخرة ويثبت اقدامكم عند الحساب والصراط ينظر: مجمع البيان ٩ / ٩٨.

ثم وجه الله الخطاب الى النبي محمد (ص) يوصيه بالصبر بقوله: ((فاصبر أن العاقبة للمتقين)) هود: ٤٩ فأصبر على القيام بامر الله وعلى اذى قومك كما صبر نوح علىأذى قومه، وان العافية المحمودة وخاتمة الخير والنصرة للمتقين كما كانت لنوح (ع): ينظر المصدر نفسه: ٥ / ١٦٥– ١٦٨.

الماضي باستحقاق العقاب، والترغيب في تركه نحو قوله تعالى: ((ومن يتق الله يجعل له مخرجاً)) الطلاق: ٢.

ان التوبة والاستغفار هما سبيلان اللذان يستحقان الثواب (ومن يتق الله) فيما امره به ونهاه عنه يجعل له مخرجاً من كل كرب في الدنيا والاخرة، (ويرزقه الله من حيث لايحتسب) ويبارك له فيما اتاه ويجعله بحيث لايحتاج الى احد اي يفوض امره الى الله.

وحث الله سبحانه على الانفاق عن طيب نفس بقوله: ((من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له وله اجرٌ كريم)) الحديد: ١١.

خص الله في خطابه اقواماً يأخذ الصدقات ويعطوها الى الفقراء بالكتمان والخفاء، فهو خير لكم وان لايتبعه المن والاذى لقوله: ((لاتبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى)) وان يقصد به وجه الله ولايرائي، لان الرياء مذموم وان يكون من أحب ماله لقوله (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) فهذه الاوصاف اذا استكملتها الصدقة كان ذلك قرضاً حسناً (وله أجر كريم) اي جزاء خالص وهو الجنة وهذا الجزاء لايشوبه صفة نقص فالكريم وهو الله وحده الذي من شأنه ان يعطي الخير الكثير: ينظر المصدر نفسه: ٩ / ٢٣٥

المحور الثاني: الدراسة الاسلوبية

إن اسلوب القرآن الكريم خاص به يتميز عن كل الاجناس الكلامية، أي أن اسلوبه معجز في نظمه، ومن أعظم مكونات الاسلوب الادبي في القرآن الكريم التركيب اللغوي، والسياقات النصية والبلاغية، وتقنية التعبير عن المقاصد والاغراض التو اصلية،فقد حوى اسلوب القرآن كل الخصائص الفنية من صور الابداع والجمال الفني وجرس الالفاظ.

بمعنى ان القرآن الكريم تتبلور فيه كل سمات الادبية، والخطاب القرآني هو خطاب ادبي بكل معايير الادبية،فالعمل الأدبي يصف القدر الكبير من امكانات اللغة الصوتية والتصويرية والايحائية والانفعالية والوجدانية،فهو نظام السني خاص اداته اللغة ؛ ولكن بصياغة السنية جديدة.

لذا كان الاسلوب وسيلة ثرة في الكشف والابانة عن جماليات تعدد الخطابات القرآنية،ووجه من وجوه الاعجاز. ومن

يتأمل آيات الاعتبار في القرآن نجد ذلك البيان المعجز والدلالات

المناسبة و مقتضيات الخطاب بحسب المقاصد و الاغراض، ومن الصور الشعرية مايثير النفوس ويبعث فيها الأطمئنان والتوبة و الاتعاظ. ومما جاء في قوله تعالى:

((قالوا ياشعيب أصلوتك تأمرك أن نترك ما يعبد إباؤنا أو أن نفعل في أموالنا مانشاءوا إنك لأنت الحليم الرشيد)) هود:٨٧.بهذا (الأستفهام)خرج الى مجاز عقلي قصد به التهكم والسخرية ' وتقدير الكلام:أصلاتك تأمرك أن نترك عبادة آبائنا أو نفعل ما نشاء في اموالنا،

ويجوز ان نعطف (أن نفعل) على (ان نترك) ؛لأن المعنى يصبح ضعيفا. اذا" جعلوا الصلاة آمرة على سبيل التهكم بصلاته التي يداوم عليها في الليل والنهار.

ومن الاعتبارات المخيفة صورة القيامة في سورة الحاقة قوله تعالى:((الحاقة وما الحاقة وما ادراك ما الحاقة)) الحاقة:١-٣ أن تكرار الحاقة هنا جاء للتهويل وتعظيم أمر وقوعها. وتكرارها له أثر دلالي، فضلا عن تجانس حرف (الحاء والقاف) وانسجامهما في التركيب وجرسها الموحي بالمعنى، و(ما) في الحاقة الثانية استفهام مجازي خرج للتفخيم والتعظيم الذي زاد في تهويلها (وما ادراك ما الحاقة)، سميت بالحاقة لأنها ذات الحواق من الأمور، وهي الصادقة الواجبة الصدق، لأن جميع احكام القيامة واجبة الوقوع صادقة الوجود، ثم شبه سبحانه القوم وهم صرعى بقوله تعالى:

((كأنهم اعجاز نخل خاوية)) الحاقة: ٧ باعجاز النخيل النخرة الساقطة على الأرض، وهذه التشبيهات المحسوسة تضمنت الفاظا تناسب مشاهد يوم القيامة وهولها، والأمر نفسه تكرر في سورة (القارعة) واثرها الدلالي وتنغم اصواتها.

ونلحظ أن جرس الالفاظ في خطاب الاعتبار كون موسيقى تصورية تثير الخوف والرعب في نفوسالسامعين نحو قوله تعالى:((فاذا أنشقت السماء فكانت وردة كالدهان)) الرحمن:٣٧

ان النص يتحدث عن قيام الساعة،والايذان في زوال حياة الدنيا،ومنها نهاية السماء،إذ يشير النص الى انشقاق هذه السماء،فشبه (السماء) يوم القيامة في أختلاف الوانها ب(وردة النبات)حمراء،ثم تجري (كالدهان) وهو جمع (الدهن) عند انقضاء الامر وتناهي المدة، وقيل:هي كالدهان التي يصيب بعضها على بعض بالوان مختلفة. قال الفراء:(شبه تلون السماء بتلون الوردة من الخيل، وشبه الوردة في اختلاف الوانها بالدهن)،وقيل:الدهان: الاديم الاحمر وجمعه (ادهنة) يجمع بين شييئن المادة،أوالسمك واللون الاحمر،ينظر:مجمع البيان: ٩\٦,٢

اذا" الاعجاز البلاغي جسد الصورة في الاولى تشبيه السماء (بالوردة)تمثيل وتشبيه الوردة (بالدهان) تشبيه،فأن اجتماع التمثيل والتشبيه ضمن السياق اعطى بعدا دلاليا معجزا ؛ وكلاهما حسيان وبما ان التشبيه هو (العقد على ان أحد الشيئن يسد مسد الآخر في حس أو عقل) النكت في اعجاز القرآن:٧٤، فالصورة الفنية لاتلتزم حدود الواقع المادي واللغوي للأشياء؛ ولكنها تقدم صياغة خاصة بعقد علاقات بين الأشياء بمنطقها الخاص، وهذاما يجعل الأشياء تتداخل وتتغير، نحو قوله تعالى:(ا(فأذاقها الله لباس الجوع والخوف)) النحل:١١٢ شبه مايدرك من اثر الضرر والألم بما يدرك من طعم المر والبشع، وشبه باللباس لاشتماله على اللابس ماغشى الانسان والتبس به من بعض الحوادث.

فالصورة التشبيهية في رأي الدكتور سامي محمد عبانية (سوى غطاء تلقيه على الاشياء المتباعدة فتلتئم في علاقات خاصة ليست قائمة في الوجود) التفكير الأسلوبي:١٧٣

إن التمثيل بمعاني القرآن الكريم اصبح سلوكا ووسيلة الى الوصول الى المعاني السامية واتخاذها قاعدة يسير عليها الأنسان في حياته،وهذا مايتفق مع احوال الناس في الجاهلية.

نحو قوله تعالى:((ولاتقتلوا اولادكم من خشية املاق))الاسراء:٣١، فأسلوب النهي لم يتغير ؛ بل صار فيه التكرار الذي فيه من الأوجه البلاغية،فخرج المعنى الحقيقي في (لاتقتلوا) الى التهويل والانذار واثباته، وتلك الانواع البلاغية تتفق مع احوال الناس في الجاهلية التي نهى عنها الله سبحانه وتعالى، وقوله تعالى:((وأما ينزغنك الشيطان نزغ)) الاعراف:٢.تتألف الآية

المباركة من مسند ومسند اليه (ينزغنك نزغ)وفيها تقديم وتأخير،قدم الشيطان على الفاعل (نزغ)،وكذلك في الاسناد الحقيقي يجب ان يكون نسبة الفعل الى صاحبه وتقدير الكلام:ينزغ الشيطان الأنسان، لكن في الآية المباركة اجتياز للاستعمال الحقيقي،إذ نسب الفعل الى مصدره ولم ينسب الى صاحبه

وهو (الشيطان) وهذا لوجود قرينة عقلية يفهم من سياق النص القرآني.

اما ففي قوله تعالى:((إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين والزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شيء عليما)) الفتح: ٢٦ الآية فيها تضاد،ذم الله سبحانه وتعالى ا لكافرين بالحمية، ومدح المؤمنين بلزوم الكلمة والسكينة،إذا" فيها تأنيب للكافرين،وتحبيب للمؤمنين و(الزامهم كلمة التقوى)وهي قول: لا آله الا الله،(وكانوا احق بها) الجملة فيها تقديم وتأخير والتقدير:(كانوا أهلها وأحق بها)،اي كان المؤمنون أهل تلك الكلمة وأحق بها من المشركين، وقيل:كانوا أحق بنزول السكينة عليهم وأهلها،وقيل:كانوا احق بمكة ان يدخلوها وأهلها،فأن الحق هو طاعة يستحق بها المدح. ينظر: مجمع البيان:٩\١٢٦.

ومن الصور المبتكرة في القرآن الكريم قوله تعالى))ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة وإنَ من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار،وأن منها لما يشقق فيخرج منه الماء))البقرة:٧٤وصف حال اليهود وبالاخص قلوبهم شبهها بالحجارة لقسوتهم، والقسوة ذهاب اللين والرحمة من قلوبهم، والقسوة والصلابة في كل شيء ونقيضه الرقة في الحجارة التي يتفجر منها الانهار بقوة يتبعه صوت الماء وهذا التشبيه معنوي، فالله سبحانه ذكر المعجزات القاهرة والاعلام الظاهرة بين مافعلوا بعدها من العصيان والطغيان فقال عز اسمه: (قست قلوبكم)،اي غلظت ويبست وعتت وقست من بعد ذلك،أي من بعد آيات الله كلها التي اظهرها على يد موسى عليه السلام،فقد عبر عنها القرآن بالصور المحسوسة المتخيلة في الذهن والواقع. ينظر:المصدر نفسه:٩\١٣٧ -١٣٩.

وحفل القرآن الكريم بصور فنية تميزت بالإبداع والتأثير في المتلقي نحو قوله تعالى:((الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه))البقرة:٢٧ جملة (الذين ينقضون) جاءت في موضع نصب لأنها صفة الفاسقين،وجملة (من بعد ميثاقه) ابتداء الغاية و(الهاء) في ميثاقه عائدة الى العهد،ويجوز أن يكون (الهاء) عائدا الى اسم الله تعالى.ينظر:المصدر نفسه:١\٦٩،وصف الله سبحانه الفاسقين في هذه الآية الذين ينقضون عهد الله،اي يهدمونه لايفون به،إذ شبه العهد (بالحبل)،إلا انه لم يذكره وإنما ذكر لازم من لوازمه وهو (ينقضون)، بمعنى يبطلون أو يهدمون،على سبيل الاستعارة التحقيقية المكنية، فالتحقيقية ليس المقصودة لذاتها،وإنما جاءت تبعا للمكنية للدلالة عليها.

وقوله تعالى:((بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون)) الانبياء:١٨ والمعنى على الحقيقة نورد الادلة القاهرة على الباطل وقيل: نرمي بالحجة على الشبهه (فيدمغه)،أي يعلوه ويبطله ويهلكه (وهو زاهق)،أي هالك؛ فقد شبه سبحانه ايراد الادلة (بالقذف)،واستعير لفظ المشبه به للمشبه،ثم أشتق من القذف بمعنى (اورد) على سبيل الاستعارة التبعية،والقذف أبلغ من الايراد ؛لأن فيه شدة الوقع، وفي الشدة بيان القهر،بيان ازالة الواقع،واستعار ايضا (الدمغ) للمحق والمحو بجامع الاذعان على سبيل الاستعارة التبعية،فهنا صور محق الحق للباطل (بالدمغ) الذي هو كسر الشيء ا لرخو الاجوف، وهو الدماغ بحيث يشق غشاؤه المؤدي الى زهق الروح،فكأن الحق اصاب دماغ الباطل فأهلكه والدمغ أشد من المحق والمحو؛ لأن في الدمغ شدة التأثير، وقوة النكاية ما ليس في المحق والمحو: ينظر أساليب البيان في القرآن:٥٦٧-٥٦٨

ومن بلاغة القرآن أن خطاب الاعتبار لم يقتصر على التهكم والسخرية والترغيب والترهيب فحسب ؛ بل تضمن مجموعة من الخطابات الاخلاقية والاجتماعية يمكن الاستدلال عليها بالعقل.قال تعالى:((وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون))الاعراف:٥٧ الله سبحانه وتعالى بيده مقاليد السموات والارض وبرحمته يرسل الرياح المتفرقة الحاملة للخير بالغيث لإحياء الأرض الميتة التي لإنبات فيها هنا مقارنة بين اخراج الثمرات واخراج الموتى يوم البعث والنشور الخطاب موجه للذين لايؤمنون بالإحياء بعد الموت ٬فأكد الله تعالى بقوله (لعلكم تذكرون)،فتؤمنون وفيه التفات (سقناه) من المتكلم الى الغيبة (لبلد ميت)لا نبات فيه، وكذلك من المتكلم الى المخاطب.

وقوله تعالى:((أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت والى الجبال كيف سطحت فذكر إنما انت مذكر)) الغاشية:١٧-٢١(أفلا ينظرون الى الإبل كيف خلقت)نظر اعتبار خلقا

عجيبا دالا على تقدير مقدر شاهدا بتدبير مدبر حيث خلقها للنهوض بالإثقال وجرها الى البلاد الشاحطة السحاب على طريق التشبيه والمجاز. وخلقت،و رفعت، وسطحت على البناء للفاعل وتاء الضمير، والتقدير:فعلتها محذوف المفعول،المعنى أفلا ينظرون الى هذه المخلوقات الشاهدة على قدرة الخالق حتى لا ينكروا اقتداره على البعث،وهذه من نعم الله على عباده لا توازيها نعمة منعم،وفيها دلائل على توحيده ولو تفكروا فيها لعلموا أن لهم صانعا صنعهم وموجدا أوجدهم، ولما ذكر سبحانه الادلة أمر نبيه بالتذكر بها فقال:(فذكر) يا محمد التذكير التعريف للذكر بالبيان الذي يقع به الفهم والنفع بالتذكير عظيم لأنه طريق العلم بالآمور التي يحتاج اليها، فيسمعوا انذار الرسول (ص)ويؤمنوا به ويستعدوا للقائه.ينظر: الكشاف ٤\ ٧٣١-٧٣٢ ومجمع البيان: ١٠\٤٨.

وقوله تعالى: ((وهو الذي أنزل من السماء ماء "فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا الى ثمره إذا أثمر وينعه إنَ في ذلكم لايآت لقوم يؤمنون)) الإنعام:٩٩

الآية فيها نظر اعتبار واستبصار واستدلال على قدرة مقدره ومدبره وناقله من حال الى حال.

يخرج منه من الخضر حبا متراكبا،وهو السنبل، و(قنوان) رفع بالابتداء، (ومن النخل) رفع بالابتداء خبره و(من طلعها)بدل منه،قيل: وحاصلة من طلع النخل قنوان،ومخرجه من طلع النخل قنوان،(انظروا الى ثمره إذا أثمر) إذا أخرج ثمره كيف يخرجه ضئيلا ضعيفا لايكاد ينتفع به وأنظروا الى حال ينعه ونضجه كيف يعود شيئا جامعا لمنافع وملاذ. ينظر الكشاف :٢\٥..كل هذه المعجزات والكافر لن يتعظ فيأتي يوم القيامة نادما نحو قوله تعالى: ((يوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتني أتخذت مع الرسول سبيلا))الاعراف:٢٧ يوم يعض الظالم على يديه ندما وأسفا يوم القيامة، والجملة جميعها في موضع(حال) ؛لأن الله سبحانه وصف لنا حال الظالم،و (ياليتني) المنادى محذوف والخطاب موجه الى (صاحبه) والتقدير:(ياصاحبي ليتني)

اتبعت محمدا (ص) واتخذت معه سبيلا الى الهدى، ويشير الزمخشري الى بلاغة الآية بطريقة فذة في الالمام بذوق اللغة واسرارها،وفيها تعدد الكنايات لمعنى واحد (عض اليدين) والانامل والسقوط في اليد وأكل البنان وحرك الاسنان والأرام وقرعها ؛ كنايات عن الغيظ والحسرة والندم،لان من روادفها فيذكر الصفة، ويدل بها على الموصوف فيرتفع الكلام به في طبقة الفصاحة. ينظر:الكشاف:٣\ ٢٧٦.فأن المعنى الموضوع لها بادائه الفني الذي كان باعثا على التأويل الا أنه نتج عنه الأثر الى المعنى المقصود، وفي قوله تعالى))قالوا أإنت فعلت هذا بالهتنا يا إبراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا فسألوهم ان كانوا ينطقون)) الإنبياء:٦٢-٦٣.

الخطاب كان بين إبراهيم والمشركين،السؤال الموجه الى إبراهيم (ع) (أإنت فعلت) فالاستفهام خرج للتعجب والاستنكار،التفت إبراهيم (ع) بخطابه (فعله كبيرهم) يقصد الصنم الاكبر، الآية فيها تعريض للمشركين، وكناية عن جهلهم، فأإبراهيم (ع) أقام الحجة والدليل على جهلهم مستهزأ بهم بقوله:(فأسألوهم أن كانوا ينطقون) فتحيروا وعلموا انها لاتنطق ثم اعترفوا بما هو حجة عليهم. وأحيانا تعتمد الكناية والتعريض على الحركة الذهنية عند المتلقي وقدرتها على الغوص في المعاني العميقة لمعرفة اسلوب الخطاب الموجه له بما يحويه من دلالات واشارات لفهم معناها. وفي ما جاء نحو قوله تعالى: ((إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لاتفتح لهم أبواب السماء ولايدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط)) الاعراف: ٤٠. والخطاب موجه للكافرين الذين كذبوا الرسل والانبياء وتكبروا، بأن لاتفتح لهم أبواب السماء لعروج ارواحهم،وإنما تبقى في مهبط الأرض وهي (السجين)،واشارة بقوله تعالى الى (حتى يلج الجمل في سم الخياط)،اي حتى يدخل الحبل الخشن الغليظ في (ثقب الابرة) الضيق جدا،فهذه إشارة تعجيزية لها سماتها الفنية وابعادها الكنائية لفهم اغوار النص.إن اسلوب القرآن الكريم مرتبطا بالمعنى واللفظ مع فصاحته وبلاغته وما يضيفه من سمات جمالية، وأن الاحاطة بمزايا اسلوب القرآن وخصائصه أمر في غاية الصعوبة ؛ لأن الفاظ القرآن لها وقع خاص به من حيث العذوبة والجزالة والانسجام.

الخاتمة

في مسيرة البحث الشيقة في رحاب القرآن الكريم، ومحاولتي المتواضعة التي أنطلقت من القرآن لدراسة الآيات التي ورد فيها الاعتبار،أو الالفاظ والتراكيب

الخاصة والتي تعبر عن خطابات الاعتبار ضمنا مع مراعاة السياق الذي جاءت فيه،وتنوع اساليب التعبير من الاخبار الى الانشاء،والاستفهام والمجاز والتشبيه والاستعارة والكناية، وجاء ملائما لمستوى السامعين.

والبحث قائم على منهج انتقائي بين ما في الآيات من تهكم وسخرية واستهزاء من اعوان الظلمة لفعلهم القبيح،والصبر والاطمئنان والترغيب والترهيب،والتعزيز.

وهذه الصور البديعة القرآنية تثير النفوس وتبعث السرور والمحبة والاتعاظ والاعتبار، وتلك الاعتبارات القولية التي حواها القرآن جاءت باساليب متنوعة بتنوع الخطابات ؛ فكل خطاب اسلوبه الخاص به، وهو خير وسيلة للوصول الى المعاني السامية، واتخاذها قاعدة اساسية ينطلق منها الإنسان في حياته.

والاعتبارات التى خاطب الله بها الكافرين جاءت مناسبة لحالهم باشارات خاطفة وسريعة مؤدية للغرض بايجاز في التهديد والوعيد،لأنه يهدف الى رصد احوالهم رصدا خاطفا، ومنه ماجاء طويلا متناسبا بالطول والامتداد بحسب مايقتضيه الموقف من مخاطبة االمؤمنين وتشويقهم الى الجنة وترغيبهم لفعل الخير والجزاء.

مظان البحث

- الاتقان في علوم القرآن – لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي – تحقيق احمد عبد علي – دار الحديث القاهرة ١٤٢٧هـ -٢٠٠٦ م.
- اساليب البيان في القرآن: للسيد جعفر الحسيني – وزارة الثقافة والارشاد الاسلامي، طهران ط١ ١٤١٣هـ.
- الامثل في تفسير كتاب الله المنزل – الشيخ ناصر مكارم الشيرازي مطبعة امير المؤمنين قم ط١ ١٤٢١هـ.
- الايضاح في علوم البلاغة – للخطيب القزويني: شرح وتعليق د. محمد عبد المنعم خفاجي الشركة العالمية للكتاب الدار الافريقية العربية: ١٩٨٩.
- التحرير والتنوير – للشيخ محمد الطاهرين عاشور دار سحنون للنشر والتوزيع تونس ١٩٩٧ م
- تغلب على الخوف –د. مصطفى غالب – دار ومكتبة الهلال – بيروت ٢٠٠٠م.
- تفسير الجلالين جلال الدين الحلي وجلال الدين السيوطي – مكتبة النهضة بغداد ط٣ ١٩٨٥.
- التفسير الكاشف: للشيخ محمد جواد مغنية دار الانوار – بيروت ط٤.
- التفكير الاسلوبي رؤية معاصره في التراث النقدي والبلاغي في ضوء علم الاسلوب الحديث د. سامي محمد عيانية، دار الكتاب العالمي عمان – الاردن ط١ ٢٠٠٧م.
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل في جوه التاويل – جار الله الزمخشري، تحقيق خليل مأمون شيما – دار المعرفة بيروت ط ١٤٢٣هـ -٢٠٠٢م.
- مجمع البيان في تفسير القرآن – للشيخ ابي علي الفضل بن الحسن الطبرسي طهران:١٣٨٣ هـ.
- مفتاح العلوم لابي يعقوب السكاكي تحقيق: د. عبد الحميد النداوي، دار الكتب العالمية بيروت ط٢ ٢٠١١.
- الميزان في تفسير القرآن - للعلامة السيد محمد حسين الطباطبائي – مؤسسة الاعلمي للمطبوعات بيروت ط٢ ١٣٩٣هـ -١٩٧٣م.
- النكت في اعجاز القرآن: ضمن ثلاث رسائل في اعجاز القرآن –للرماني، تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام / دار المعارف مصر